

.. المحاضرة الأولى ..

- في أخلاق العرب قبل الإسلام :

- كانت أخلاق العرب قد ساءت وأولعوا بالخمير والقمار، وشاعت فيهم الغارات وقطع الطريق على القوافل، والعصبية والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالربا.

- وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذه الأخلاق الذميمة، بل قد كان فيهم كثيرون لا يزنون ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء ولا يظلمون، ويخرجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا،

و كانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهلته حمل راية الإسلام ومن تلك الخصال والسمات :

- الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق :

كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به، ويستهنون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وكانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام .

- أنهم أهل مروءة ونجدة :

العربي بفطرته ذو مروءة فهو يأبى أن ينتهز ضعف الضعيف، وعجز العاجز كالمرأة، والشيخ، والمريض، وهو ذو شهامة إذا استنجد به أحد أنجده .

- المضي في العزائم :

كانوا إذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله .

- الشجاعة :

كانوا مضرب الأمثال فيها، وقد كان الواحد منهم يقابل الأسد في الصحراء فينازله حتى يقهره، وبعضهم لم يعرف الفرار ولا الهزيمة قط، وقد كان لهذه الفضيلة وزنها حينما جاء الإسلام، وفرض عليهم الجهاد .

- الكرم :

كان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير .

- العفو عند المقدرة :

كان الواحد منهم ينازل خصمه، حتى إذا أمكنه الله منه، عفا عنه وتركه، بل كان يأبى أن يجهز على جريح .

- حماية الجار وإجارة المستجير :

كانوا إذا استجار بالواحد منهم مستجير أجاره، وربما ضحى بنفسه وولده في سبيل إجارته .

- القناعة والرضا باليسير :

فقد كان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمرات يقيم بها صلبه، ورشقات من ماء يرطب بها كبده، وقلة تكاليف الحياة جعلتهم يكتفون بالقليل.

جاء في الرحيق المختوم : " لعل أعلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعاً بعد الوفاء بالعهد هو عزة النفس والمضي في العزائم، إذ لا يمكن قمع الشر والفساد، وإقامة نظام العدل والخير؛ إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم".

- تعريف الأخلاق لغة:

- **الأخلاق لغة:** جمع خلق (بضم اللام وسكونها) اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلق عليها، وهو مأخوذ من مادة (خ ل ق) التي تدل على تقدير الشيء.

- ومما يرادف لفظ (الخلق) أو يقاربه في المعنى :

1- **الخيم :** وهو السجية والطبيعة.

2- **الملا:** وهو الخلق والعشرة ، يقال: ما أحسن ملا فلان أي خلقه وعشرته.

- تعريف الأخلاق اصطلاحاً :

اختلفت عبارات العلماء والباحثين في تعريف الأخلاق، ويرجع ذلك إلى أن :

- بعضهم يرى : إطلاق الأخلاق على هيئة في النفس الإنسانية يصدر عنها السلوك ،

- بعضهم يرى : إطلاق الأخلاق على نفس المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني.

- يلاحظ أن أكثر تعريفات المتقدمين ترى أن الأخلاق هيئة في النفس الإنسانية، فلا تطلق الأخلاق على المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، ولا على الفعل الصادر من خلق الإنسان كالشجاعة أو السخاء إلا على سبيل المجاز.

من تعريفات المتقدمين تعريف الجرجاني، حيث عرف الأخلاق بأنها:

هيئة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر و رويّة فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة .

- **سميت الهيئة:** خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، **سميت الهيئة:** خلقاً سيئاً.

يستفاد من هذا التعريف ما يأتي:

- أن الخلق صفة مستمرة لا عارضة، ثابت في الإنسان لا تنفك عنه، فمن أكرم الضيف مرة أو مرتين لا يوصف بالكرم، ومن صارع شخصاً فهزمه لا يوصف بالشجاعة، حتى يعرف ذلك منهما مراراً.

- أن الامتثال بالخلق لا يحتاج إلى تكلف أو مجاهدة نفس، فمن تكلف السكوت عند الغضب بجهد لا يوصف بالحلم حتى يكون سكوته بلا تكلف ولا مجاهدة.

وعرفه بعض المعاصرين بأنه: صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة، ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة.

يستفاد من هذا التعريف ما يأتي:

1- أن الأخلاق منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب.

2- أن الأخلاق لها آثار سلوكية، فالسلوك ليس هو الخلق، بل هو أثره وشكله الظاهر.

ومن المعاصرين رأى أن الأخلاق تطلق على نفس المبادئ وقواعد منظمة للسلوك الإنساني، ومن هذه التعاريف:

مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي، لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه.

- يستفاد من هذا التعريف ما يأتي:

1. أن الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر، ليست نابعة من تأملات فلسفية أو عبارات نفعية، أو تجارب تربوية، وإنما في أصولها وفروعها مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

2. أن هذه الأخلاق تنظم علاقة الإنسان بخالقه، وبنفسه، وبالأخرين.

ولا بد أن نذكر أن مفهوم الأخلاق الإسلامية: مرتبط بمفهوم الإيمان، فمن آمن بالله وحده، وعبد الله وحده، وأحب الله سبحانه وتعالى حباً يستولي على مشاعره، يستلزم هذا منه أن يتجه الإنسان المسلم نحو تحقيق رضا الله سبحانه، وهذا الاتجاه يستلزم من الإنسان سمواً عن الآتية وعن الأهواء، وعن المآرب الدُّنيا، وعندما يعرف الإنسان حقيقة هذه الدنيا يكون سلوكه وعمله خلقاً من الدرجة الأولى، عندها نكون ماضين في طريق بلوغ الكمال الإنساني.

يستفاد من هذا :

1. أن الأخلاق الإسلامية ترتبط بالإيمان ارتباطاً وثيقاً، فمن آمن بالله لا بد وأن يهذب الإيمان نفسه، وأن يقوده لمعالي الأخلاق.
2. أن الأخلاق في الإسلام ليست جزءاً من الدين بل هي جوهره وروحه. كيف لا و رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).

والملاحظ أن الأخلاق في المعنى الاصطلاحي لا تبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي :

فالعلماء يريدون بالأخلاق تلك الصفات التي تقوم بالنفس على سبيل الرسوخ ، ويستحق الموصوف بها المدح أو الذم، حتى تصبح هذه الصفات كالمسجية والطبع للإنسان.

- الفرق بين الأخلاق وبين بعض المصطلحات :

- أولاً: الفرق بين الأخلاق والقيم :

بعد أن تعرفنا على المعنى اللغوي والاصطلاحي للأخلاق، لابد من التفريق بين الأخلاق وبين المصطلحات الأخرى التي قد تتداخل معها، فإذا أردنا التفريق بين الأخلاق والقيم ، فلا بد أن نعرف أولاً ماهي القيم؟ القيم بالمعنى العام « مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدد على أساسه المرغوب فيه والمرغوب عنه ».

والقيم الإسلامية: مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة والإنسان والإله، كما صورها الإسلام، وتتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الحياتية المختلفة، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته تتفق مع إمكانياته، وتتجسد من خلال الاهتمامات أو السلوك العملي بطريقة مباشرة وغير مباشرة.

يبدو واضحاً التقارب بين مفهوم الأخلاق والقيم الإسلامية، ولعل مفهوم القيم أوسع دلالة من مفهوم الأخلاق، فالقيم هي فضائل خلقية كما أنها المعيار لسلوك أفراد المجتمع، فجميع المسلمين تقوم أعمالهم في إطار غايات وأهداف الدين الإسلامي الحنيف.

ثانياً: الفرق بين الأخلاق والغرائز:

مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة والإنسان والإله، كما صورها الإسلام، وتتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الحياتية المختلفة، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته تتفق مع إمكانياته، وتتجسد من خلال الاهتمامات أو السلوك العملي بطريقة مباشرة وغير مباشرة.

يبدو واضحاً التقارب بين مفهوم الأخلاق والقيم الإسلامية، ولعل مفهوم القيم أوسع دلالة من مفهوم الأخلاق، فالقيم هي فضائل خلقية كما أنها المعيار لسلوك أفراد المجتمع، فجميع المسلمين تقوم أعمالهم في إطار غايات وأهداف الدين الإسلامي الحنيف.

ثانياً: الفرق بين الأخلاق والغرائز:

الغريزة: هي الدافع للإنسان إلى عمل من غير فكر، وهي جزء من الفطرة . وحتى يتضح المعنى نقول بأن **الغريزة:** "سلوك موروث أكثر من كونه مكتسباً يمكن أن نصف الشخص الذي يميل إلى القتال دوماً بأنه ذو غريزة عدوانية، ولكن هذا الشخص لم يُولد ومعه رغبة القتال، ولو أتاحت له بيئة منزلية أو مدرسية مختلفة لما تطوّرت عنده تلك الخاصية."

إن الصفات المستقرة في النفس ليست كلها من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز ودوافع لا صلة لها بالخلق، ولكن الذي يفصل الأخلاق ويميزها:

1. أن الغرائز لا توصف بالخير أو الشر، بينما الأخلاق توصف بالخير أو الشر.
2. أن الغرائز لا تستوجب لصاحبها مدح ولا ذمّاً، بينما الأخلاق يمدح صاحبها أو يذم حسب الخلق الذي تخلّق به.
3. لا يترتب على إشباع الغرائز ثواب أو عقاب، بينما يثاب من تخلّق بجميل الأخلاق، وقد يعاقب من تخلّق بقبيحها.

ويمكن القول بأن طرق إشباع الغرائز والدوافع هو الجانب المرتبط بالأخلاق، والمدح والذم يكون على تلك الطريقة، وليس على نفس الغرائز، فمن يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يمدح ولا يذم على فعل الأكل، وإنما يمدح أو يذم على طريقته في الأكل.

ثالثاً: الفرق بين الأخلاق والسلوك:

السلوك: سيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه يُقال فلان حسن السلوك أو سيء السلوك. وعرف بأنه: مجموعة أفعال الكائن الحي استجابة للمؤثرات الداخلية والخارجية.

- **بناء على ما سبق نقول:** بأن الأخلاق صورة النفس الباطنة، والسلوك هو صورتها الظاهرة التي تدل عليها، ونحن نستدل على طبيعة أخلاق المرء بسلوكه الظاهر. فالسلوك يعتبر للأخلاق كالنتيجة، فمن حسن خلقه صدر منه السلوك الحسن، ومن ساء خلقه صدر منه السلوك السيء.
